

د. أحمد محمود عيساوي  
أكاديمي وباحث جزائري

# أين نحن من عصر ما بعد المعرفة؟

الإلكترونية والمعلوماتية المذهلة، من: إنتاج، ونشر، وجمع، وحفظ، وفهم، وتطويع، واسترجاع، وتفسير، وإعادة فهم وتفسير، ودمج، وقص ونسخ ولصق، وصياغة، وتفاعل.. وصاروا يفتخرون بسميتهم «مجتمع المعرفة».

وشجعهم على إطلاق اسم مصطلح مجتمع المعرفة على المجتمعات التي تعطي جل اهتماماتها لبناء المهارات والقدرات وتنمية المواهب للبحث عن المعلومات، وتصنيفها، وتنظيمها، ومعالجتها، وإتاحتها للجميع من أجل استخلاص المعرفة وإبداع معرفة جديدة، وتوسيع نطاق تطبيقاتها في شتى أغراض التنمية الإنسانية عموماً والتربية الاقتصادية والاجتماعية خصوصاً، بحيث تغدو صناعة المعرفة قطاعاً اقتصادياً منتجاً، قائماً بذاته يفوق في أهميته أي قطاع آخر.

وهو المجتمع الذي تبنته الدورة الأولى للقمة العالمية حول مجتمع المعلومات المنعقدة في «جييف» شهر ديسمبر ٢٠٠٣ بدلاً من «مجتمع المعلومات» الذي يركز على البنية التحتية التي توفر تقنيات المعلومات والاتصالات والإعلام، وتكفل نشر المعلومات وتبادلها وتسويقها واستهلاكها، ليصبح مفهوماً وعملية بديلة لمرحلة مجتمع المعلومات حسب ما أكدته الخبر العربي «نبيل علي» لإقامة مجتمع المعرفة كمحور للنهضة القادمة.

والجدير بالتنويه به هنا أن مصطلح «مجتمع المعلومات» سبق أن سيطر على البنية الفكرية والمعرفية والتطبيقية في العقد الأخير من القرن العشرين، وصار مواكبة هذا التطور السريع والمذهل في تدفق المعلومات أمراً عسيراً على الأفراد والمجتمعات، لأنه على حد قول المفكر الفرنسي «فرانك كيليش Frank ouelich»: «بتنا ننتظر فجراً جديداً سرعان ما يلوح بعده مغيب جديد، لن يمكننا من

الكونتم فالنانو.. فالشفرة والهندسة الجينية فالذرة.. فتصغير العالم كله واحتزالة في عوالم وفضاءات أجهزة الحاسوب الرقمية المتطرفة جداً، فيما سمي بالفضاء الافتراضي.. وقد ذهب فلاسفة المعرفة وأساطين الإلكترونيات والرقمنة بعيداً في ذلك التدوين الحضاري، فصنفوا وأرخوا لتطور مسار الحضارة الإنسانية نهاية القرن العشرين، ونعتوا عصر مجتمع نهاية الألفية الثانية بمجتمع الإعلام، وعصر بداية الألفية الثالثة بمجتمع المعلومات، وعصر بداية العقد الثاني منه بمجتمع المعرفة، ونصف عقده الثاني -الذي نعيش- بمجتمع التسخير والسيطرة على سائر قوى الطبيعة، انتظاراً لولوج مرحلة مجتمع الفضاء الكوني منتصف الألفية الثالثة أو بعدها.. وهكذا حتى يرث الله الأرض ومن عليها.. وهنا وجّب علينا أن نسأل أو -بالأحرى- نسائل أنفسنا اليوم، وبكل شجاعة وجودية وعقلانية محضة، قائلين: أين هو موقع ومكانة أمّة العرب والمسلمين من هذه التطورات الحضارية المذهلة؟ وما تقدّم نستطيع صناعة موطن قدم في نسق هذه التصنيفات التي غدت قدر البشرية؟ أو -على أقل تقدير- الاستفادة من مرحلة وعصر ومجتمع الإعلام أو المعلومات أواخر الألفية الثانية لصناعة فرد ومجتمع ناهض؟

### تصنيفات حضارية

والملاحظ بجلاء في مسار التطور الحضاري العالمي أن مفكري وفلاسفة الحضارة المعاصرة قد أسهبوا في وصف وتمجيد المستوى الحضاري الرفيع الذي وصلته الإنسانية -ولا سيما الشعوب المتقدمة في أوروبا وأميركا وأسيا- نهاية الألفية الثانية، في مجالات التطور العلمي والتكنولوجي والصناعي.. وفي مجال الثقافة

عرفت البشرية خلال مسيرتها الحضارية تطورات مذهلة في مجال الإبداع والابتكار والاختراع والإضافة.. وبعد أن كان عمر المعلومة أو المعرفة أو الاختراع أو الابتكار -الذي يضيف للتطور الحضاري خطوة إلى الأمام- يقدر بمئات السنين، صار عمره اليوم لا يتعدي ثلث دقائق، ليقاد بعدها بشكل خاطف وسرعٍ خلف الابتكار الجديد، ويصبح اختراعاً أو اكتشافاً قديماً، ويعرف مبدعه -مبينا- أن اختراعه لن يعمر طويلاً في عالم الاكتشافات والاختراعات المذهلة، وهكذا تطور الحضارة الإنسانية دواليك..

والمتابع لمسار الحضارة الإنسانية يعرف أن الإنسان ظل منذ اكتشافه: النحت والرسم والتدوين المسماري والطيني قرولاً طويلاً ينتظر صناعة الورق (الكافد الصيني) أو (البردي المصري) ليتحول بعدها نحو النسخ والتدوين قرولاً طويلاً أيضاً، إلى أن تتمكن بعد حقب طويلة -تقدير بأكثر من ألف وخمس مائة سنة- من اكتشاف تقنية الطباعة الآلية على يد المخترع الألماني «يوهان غوتبرغ» سنة ١٤٥٣م، إلى أن وصلأخيراً إلى صناعة الكتابة الإلكترونية ونظيراتها الشبكية ومشتقاتها الوسائلية، وتطوير أساليب النسخ والحفظ الحاسوبية فالرقمية.. وهكذا تقدّرت المسافة بين سائر المنجزات الحضارية، كـ: قوة الرياح، فالبخار، فالديزل، فالمحركات النوية، فالسيف والرمح والقوس والمنجنيق، فالبنادق والمدافع والدبابات، والجمال والبغال والحمير.. فالقطارات فالسيارات فالبواخر العملاقة فالطائرات فالصواريخ فالمسابر الفضائية.. وصولاً إلى اكتشاف مجاهيل الفضاء والإبحار نحو الكواكب الأخرى كالمريخ.. ومن السنة الضوئية إلى

- والخصوصيات القومية.
- ٣ - أنها أدت إلى الزيادة المذهبة في انتقال السلع والخدمات والاستثمارات نتيجة التحرير المتنامي للأسوق، والفضاءات الاقتصادية الحرة، والتبادلات التجارية.
  - ٤ - أنها أدت إلى النمو المتسارع في تبادل المعلومات والأفكار والمعرفة والقيم، والتعامل معها وفق آليات السوق.
  - ٥ - أنها عملت على إيجاد هيئات ومنظمات دولية فاعلية لها من الهيمنة القوية على الحكومات الوطنية ما يضطربها للتنازل والانقياد أحياناً.
  - ٦ - أنها نوعت أشكال الكتاب الإلكتروني، وانتشار التدوين والنشر الذاتي.
  - ٧ - أنها دشنت نهاية عصر المؤلف التقليدي وتزايد عدد الكتاب والمؤلفين والمدونين.
  - ٨ - أنها أعادت صياغة مؤسسات وبرامج التعليم التقليدية، وبدأت نهاية عهد مؤسسات التعليم عن قرب، نظراً لاختراع وسائل التعليم عن بعد.
- وقد ذهب الكثير من الباحثين عند تناولهم لتداعيات الثورة المعرفية بعيداً في دراسة أثر وسائل الإعلام الجديد على مختلف ميادين الحياة إلى نتائج مذهبة ومثيرة معاً، فقد تبين لهم حدوث تطورات جذرية في ميادين التربية والتعليم والتكتون والتنقيف والتدريب والتمهين، حيث سيفيغ فيها الإنسان كفرد من مسرح العمليات التكوينية كخطوة أساسية وأولى، أمام سطوة الآلات والتقنيات العالية التأثير، كالتعليم والتكتون عن بعد، والتعليم بواسطة البرامج العملاقة والحواسيب الآلية و«الروبوت».. وغيرها، من فتوحات الإعلام الحديث الجديد. وفي رأيهم سينتهي عصر المعلم والفصل والحجرة الدراسية والمدير والوثائق والامتحانات والورق

والبنوك بوسائل الإعلام والاتصال، وما لبثت أن اندمجت كلها في شركات عملاقة متعددة الوسائط، تنتج الأفلام والكتب والأقراص المغناطيسية والألعاب، وتقديم خدمات البيع بالراسلة، ومعاملات البنوك، وتمتلك فرق كرة القدم وغيرها حسبما يشير بذلك خبراء الرقيبات والإلكترونيات. وقد أدى هذا المستوى التكنولوجي والإلكتروني الهائل إلى طرح جملة من التساؤلات الإشكالية حول أمم العربية ومصيرها بين عالم الأقواء!! وعن موقعها أمام الزخم التقني والصناعي والعلمي والمعرفي والفكري والثقافي، بل إلى طرح تساؤلات محورية حول مناهج ومخطبات وتصاميم البنية المعرفية لمجتمعاتنا العربية والإسلامية، في مجال البنية التحتية لأنظمة التربية والتكتون والتعليم والتنقيف في ظل هذا التسارع المعموم المذهب.

والسؤال المطروح هنا بقوه هو: هل أمكننا أن نستفيد من فتوحات العولمة في بناء فرد ومجتمع مسؤول وناهض، نستطيع أن نعول عليه في بناء نهضة عربية وإسلامية قادمة ومنتظرة؟ وهل يمكننا أن نستفيد عملياً من خلاصة ما قرره خبراء المعلوماتية في هذا المجال؟

ومن هنا فقد أمكن للخبراء أن يحصروا إيجابيات مرحلة «مجتمع المعلومات» ممثلاً بقوه عبر إنجازاته الحديثة في عالم تكنولوجيا الاتصال والإعلام الجديد، والتي بدأ في الآتي:

- ١ - أنها اكتسحت كل دول العالم، بما فيها الدول التي كانت توصف بالمعزولة، وأوجدت أسواقاً جديدة موصولة ببعضها البعض على الصعيد العالمي، ضمن نسق حرية النقد ورأس المال الأجنبي.
- ٢ - أنها فككت وأنهت حدود الزمان والمكان، وتجاوزت الحدود الجغرافية والسياسية، واخترقت الثقافات

التمتع بأشعة الشمس»، فيما ينطلق الخبير المتخصص في التكنولوجيات والوسائل الإعلامية «سمير إبراهيم حسن» وهو يتناول موضوع «الثورة المعلوماتية عواقبها وأفاقها»، إذ توصل إلى حقيقة مفادها عجزنا كأمة عربية- عن مواكبة واستيعاب القديم فضلاً عن اللحاق بالجديد الشر والتجدد الغزير.

وقد حل مصطلح «مجتمع المعرفة» في الأدبيات التواصلية العالمية بعيد جلاء الرؤية عن مفهوم «مجتمع المعلومات» الذي هيمن على ساحة التواصل والتفاعل العالمي في العقد الأخير من القرن العشرين، متداولاً مصطلح «مجتمع الإعلام العالمي» الذي رسمت معالمه الولايات المتحدة الأمريكية بعيد عام ١٩٩٥ من خلال مشروع الطرق السيارة والمتدفقة للمعلومات الذي يبشر «العائلة الإنسانية العالمية» بخيرها الوافر لبني البشر. الذي سرعان ما تلقفت الدول السبع الكبرى الفكرة لتقرر في العام نفسه قيام «مجتمع الإعلام الشامل»، وما لبث أن أقرت الدول الـ ١٥ الكبرى في عام ٢٠٠٠م تعزيز مجتمع الإعلام هذا من خلال التركيز على الشبكة المعلوماتية (الإنترنت).

وهو المجتمع الذي يقوم على تقنيات الإعلام والاتصال فاصلة القدرة، وعلى تبادل المعلومات ونشرها في كل دول العالم، أو هو مجتمع الثورة الرقمية، التي أدمجت نظم دلالات (المكتوب/ الصوت/الصورة)، من خلال نظام وحيد يمكن من نقل الصوت والصورة بسرعة الضوء، محدثاً بذلك تحولات جذرية في عالم الاتصال والترفيه، وشجع من جهة على اندماج المؤسسات الإعلامية، وأدى من جهة أخرى إلى تحكم الشركات الصناعية المرتبطة بشبكة الإنترنت وشبكة الهاتف الجوال والكابل والإشهار والرياضة

المجالات. وتبعاً لهذا الاستقرار السياسي المنظر، أمكن صناعة نهضة وفرد مجتمع ناهض متطلع نحو صناعة الحضارة والمشاركة في المجهود الإنساني العالمي، في ظل هذا الاستقرار السياسي والأمني والإداري والتظيمي القانوني والمؤسسي.. يجد وبكل طمأنينة- الفرص الكثيرة والمتنوعة والمناسبة لـ: التربية والتعليم والتكتون والتأطير والإعداد العلمي والمعجمي والمهني والسلوكي والأخلاقي والتوعوي والديني.. ومنها تتطرق الأمة العربية والإسلامية بعد جيل أو جيلين لرقة الفجوة القائمة بين عالم الأقوياء المقتدرین وعوالم التخلف والتبعية.. وما ذلك المستوى السامي ببعد المثال، لو أمكن للقائمين على مؤسسات الأمة وطاقاتها وإمكاناتها الحية، من ولادة الأمور وقادرة الرأي والنخب صناعة مكونين ومؤطرین ومربيين ومشرفين ومعلمین ومديرين ونواب وإعلاميين.. أكفاء ومخالصين وقادرين ومتميزين وغيريين على مجد الأمة الإسلامية وعزها الغابر، وعلى راهنها ومصيرها ومستقبلها بين الأمم الناهضة.

ويدعم ذلك كله.. ولی أمر عادل، رؤوف رؤوم بشعبه، وجيش مدرب مخلص قوي، وأجهزة أمن ونظم ساهرة، ومؤسسات إدارة ونظام اقتصادي عقلاني، وركيزة مالية قوية ومحمية من كل أشكال الفساد، وعوائد واستثمارات بشرية وتجارية متنوعة، ومداخيل ثرية، وسياسة اقتصادية واجتماعية وتعليمية وتنقيفية ودينية وإعلامية.. رشيدة، تهيئ الأسباب الازمة والكفيلة بخلق المناخ الصحي والسليم لهذا الفرد الناهض، ليمارس ويبدع ويفتق مواهبه التطلعية لصناعة النهضة المنشودة. وما ذلك على الله بعزيز.

وتكونه في مهب المصير المجهول، وعرضة لكل الاحتمالات المفتوحة على أسوء الاختيارات. وعليه فإن نصف طاقة العالم العربي البشرية القوية والمتقدمة خارجة من أي مراهنة أو مشروع حضاري نهضوي، ومن أي عملية تطلعية نحو صناعة فرد وأمة ناهضة، وأغلب طاقات وموارد إمكانيات الأمة الإسلامية عرضة للتفكك أيضاً، فضلاً عن التهديدات الداخلية والخارجية من المنظمات والجماعات التكفيرية والإرهابية والمعارضة الداخلية المرتبطة بالقوى الخارجية، وتهديفات الأخطار الخارجية تحت مختلف المسميات الاقتصادية والقانونية والأمنية.. وما يزيد الأمور تعقيداً والأوضاع سوءاً معاناة الشعب الفلسطيني في ظل الاحتلال الإسرائيلي وانتهاك المقدسات الإسلامية وغياب رادع أمريكي لحل القضية الفلسطينية، والخوف من زعزعة استقرار دول مجلس التعاون الخليجي، التي باتت تشكل اليوم ملجاً للعرب وموئلاً للمسلمين، وأنموذجاً تطلعياً ناهضاً، المؤهل اقتداءً أشهده: وترسم انعكاس تأثيراته الإيجابية في العالم العربي والإسلامي؛ واحتذاء نموذجه في العلاقة القائمة على احترام القيم الدينية والوطنية والنهضة بالأمة والوطن والثقة والطاعة والمحبة والاحترام بين ولادة الأمور والرعاية.

ولكي لا يسود الأفق التطلعى المستقبلي للجماهير العربية والإسلامية المتطلعة للنهضة والحياة الكريمة، يجدر بالنخب المتفقة العمل بكل الوسائل المتاحة على توسيع هذه الرؤية والمرجعية الناجحة، والتي استطاعت أن تبني نهضة خليجية، صارت أنموذجاً حضارياً يحتذى في العالم استطاع أن يخرج بدول المنطقة من مأزق التخلف نحو بوابات النهضة العالمية في مختلف

وغيرها من مخلفات الأنظمة التربوية والتعليمية البائدة..

وقد رأى بعضهم أن التعليم الجامعي العالي سيحظى بالنصيب الأكبر والأول والأوسع من هذا التطور الإلكتروني المذهل.. متناسين الآثار السلبية لهذا الانزعاج القسري، الذي سيكون له فوائد ومضار مشتركة معاً، وإن كنا نعتقد أنه لا يوجد خير محض، ولا شر محض، فالمشروع الحكيم عند مراحل ذمه للخمر تمهدًا لحريمها اعتبر أن فيها منافع وآثاماً كثيرة أيضاً، فالفتוחات العالمية لها منافعها وفوائدها الكثيرة، وكذلك لن تعدم الكثير من التأثيرات والارتجاعات والتداعيات السلبية أيضًا.

ولكن السؤال الملحق والاستراتيجي هنا هو: أين العرب والمسلمون من كل هذه التطورات والتحسينات؟ وأين موقعها حاضراً ومستقبلاً؟

#### رؤية نهضوية شاملة

لا شك أن المتوسط في الخريطة الجيوسياسية العربية والإسلامية اليوم يقف أمام حقائق مؤلمة وقاسية جداً في شتى الحقول والميادين، فعلى صعيد الاستقرار السياسي، وهو الركن المهم والأساس: بله الرئيسي في عملية النهضة والتنمية، فإن العالم العربي يشهد حراكاً مبهماً وغير واضح المنطلقات ولا الوسائل ولا الأهداف، فعدا دول مجلس التعاون الخليجي والأردن والجزائر والمغرب و Moriarty، فإن باقي الدول العربية الأخرى صار بعضها على شفير الاهتزازات والأزمات الارتدادية، والأخرى يعتورها العصيان والثورات والتبرم والنقمة، كما يسودها مناخ الانفصام والتباين بين طموحات وطلعات الجماهير وسلطاتها الحاكمة.. ويمثله الحال في الكثير من الأقطار الإسلامية، ما يجعل أي مراهنة على عملية بناء الفرد الناهض